

كتاب البيان و التبيين للجاحظ

إعداد : محمد المزمع علي محمد السلام

الجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب، و رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، وولد في البصرة سنة ١٣٦هـ فلج في آخر عمره. و كان مشوه الخلقه. و مات و الكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه و ذلك في سنة ٢٥٥هـ.

يعد الكتاب من أمهات كتب الأدب العربي، كما ألمح ابن خلدون في مقدمة تاريخه عند كلامه على علم الأدب، بدأه صاحبه بمقدمة: ضمنها حديثاً عن الفصاحة و الطلاقة، و العي و الحصر، ثم شرع في تفصيل البيان، و ذكر أشهر الخطباء و أهم الخطب، و الرسائل الأدبية التاريخية.

يعتمد الجاحظ في كتابه على أسلوب بديع مع ذكر فلسفته و رأيه، حصر أنواع البيان بخمسة و هي اللفظ و الإشارة و العقد و الخط و النصبة، فأما اللفظ و الإشارة فهما شريكان يعملان معا ولا ينفصلان، و إن الإشارة لتعبر عما يعجز عنه اللفظ أحيانا و قد تنوب عنه في أحيان أخرى، فهي أبلغ منه، و استشهد الكاتب بقول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور و لم تتكلم

وبالنسبة للخط، فقد قصد الجاحظ به التدوين، و قيل فيه "القلم أحد اللسانين" و "القلم أبقى أثراً"، للتدوين عظيم الأثر في تكوين الحضارة الإنسانية و الارتقاء بها، فهو السبيل إلى حفظ العلوم و صيانة اللغة، و فضله على اللفظ أن الخط يصل للغائب و يحض القارئ على التعمق في الفهم و التدبر في المعنى.

حيث يقصد الجاحظ بالعقد الحساب، يقول: "و أما القول في العقد، و هو الحساب دون اللفظ و الخط، و الحساب يشتمل على معان كثيرة و منافع جليلة، و لولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة"، و قد أشار الله تعالى إلى نفعه في قوله "هو الذي جعل الشمس ضياء و القمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق" فهو أساس العلوم الطبيعية و الجهل به يؤدي إلى فساد النعم و الإخلال بالنظام.

و أخيراً النصبة، و التي شرحها الجاحظ بأنها الحال الدالة على المعنى بغير نطق أو إشارة. و تظهر في الجمادات و الكائنات غير الناطقة.

قيل "سل الأرض فقل: من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً"، و قال شاعر، و هو الراعي:

إن السماء و إن الريح شاهدة و الأرض تشهد و الأيام و البلد

لقد جزيت بني بدر ببغيهم يوم البهائة يوماً ما له قود

و هذه الجمادات إن لم تنطق فإنها تبين المعنى من الآثار الباقية عليها، خصص الجاحظ آخر جزء من باب البيان للحديث عما يقرب المعنى إلى قلب السامع و يبقي أثره فيه، فقال: "و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، و معناه في ظاهر لفظه" و هنا يثني على الابتعاد عن التكلف و الإسهاب.

ثم تكلم عن أهمية أن يصدق الخطيب في قوله و استشهد بقول عامر بن عبد قيس "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، و إذا خرجت من اللسان، لم تجاوز الأذان " و ختاماً يذكر الجاحظ فضل تقصي العلم و مخالطة أهله و يذم الجهل و أثره في إفساد اللسان و القلب و سرعة تأثيره على طباع المرء، فقال "و الإنسان بالتعلم و التكلف، و بطول الاختلاف إلى العلماء و مدارس كتب الحكماء، يوجد لفظه و يحسن أدبه، و هو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك العلم، و في فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير"

هو من أهم كتب العربية هو البيان و التبيين و للمحقق عبد السلام هارون، السمة التي وسمت الجاحظ هي تلك الموسوعية فهو متميز فقد نوع و لم يكتب البيان و التبيين و الحيوان إلا في نهاية حياته و لذلك فعندما نقرأ في هذا الكتاب على وجه التحديد طبعا الحيوان له الصفة العليا في الأدب أكثر و لكن هذا الكتاب فيه مداخل علمية قديمة تستطيع بالفعل ان تقوم الانسان في لسانه و في نطقه و معلوماته حول اللغة، هذه الدقة و تلك الموسوعية التي عرض فيها الجاحظ .

يظن القارئ عندما يفتح مقدم البيان و التبيين أنه سيقراً شيئاً بسيطاً و لكن عندما يمر في هذا الكتاب من اول صفحة مشهورة في الكتاب تصف العلم يعني المرض او الإصابات الذي يمكن ان يصيب الانسان في المنعة أو الحبسة او عيوب النطق

و ما الى ذلك لأنها تنقل منها او يستغفر الله من هذا العيب ثم ينتقل الى ما يسمى نعمة البصر

طبعا نحن في العصر الحديث نستطيع ان نقدر هذه الفصاحة المعاصرة لبعض الخطباء السياسة لم يعودوا موجودين لان معظمه مثقف ثقافة اجنبية او انه لو تحدثت العربية فلن يقبل الشعب ان يتحدث رئيسهم باللغة العربية قديمة لأنه سيتهم بأنه لا يصلح بإقامة العدل في البلاد، فعليه وقتها ان يلون في اللغة .

المصدر الاساسي هنا نعمة الفصاحة التي يتحدث عنها أبو عثمان إمام العربية بحق عندما يقف عند هذا الباب ينتقل منه الى باب اخر منطقي جدا عن التشدق بان هناك ايضا من الخطباء من ينفرد حتى لو كان فصيحاً عربياً مقلداً في اختيار الالفاظ إلا ان يفسد المحتوى لهذا التعرر و هذه الايقاعات التي تفسد المعاني المطروحة في الطريق كما يقول ،

في مقدمة هذا الكتاب شيء لا نقتنع به دائماً في كتابات الجاحظ لأنه اخره قال انه سيدفع لهذا الكتاب عن اللغة العربية و عن الجنس العربي ضد الشعوبية ، قضية الشعوبية قضية لا يمكن انكارها في التاريخ لها قدمان راسخان في التأليف ضد العرب و مستمرة أصبحت تأخذ صفات اخرى في كتابات العالم المعاصرة في الآداب العالمية و في الإستشراق و فيما نسميه بالشعوبية المحلية فهناك من ينتمون الى البلاد حقا عرقا يعني جسميا هم ينتمون إلى الجنس العربي بصفة أساسية إلا انهم تشبثوا بفكرة الشعوبية فيما أطلقوا عليه النقد الذاتي .

الهيكل العام دائما يمكن إصلاحه و لذلك لما يتوقف الجاحظ في مقدمة الكتاب ل يقول انه سيدفع العرب ضد الشعوبية فقد فعل إلا أنه بدأ في هذه الأمور إلى أن وصل إلى الجزء الأخير ليتحدث في الكتاب عن العرب .

طبعا من مصاحبته للمترجمين مثل حنين بن إسحاق تعلم منهما المنطق اليوناني و لذلك سنجد في هذا النص حوارا مع ارسطو و يسميه ارسطو أحيانا و صاحب المنطق أحيانا أخرى.

لذلك كانت ثقافة الجاحظ ثقافة موسوعية بسبب اطلاعه و تنوع أساتذته و اطلاعه على من يترجمون و ترجمة من يترجمون عن اليونانية كذلك كان بسبب مصاحبته لعبدالله بن المقفع يطلع على المصدر الفارسي في التأليف و النظرة مع العرب ، هذا التنوع ليس فقط هو مكون للجاحظ الحقيقي و لكن مكون الجاحظ الحقيقي هو أنه نشأ في سوق البلد أي أنه نشأ طفلا في السوق يبيع السمك كما هو مشهور ولذلك ثقف نفسه ثقافة إقليمية اجتماعية ثقافية درس أحوال الناس و عالج ذلك في نصوص كثيرة من كتبه و في رسائله على وجه التحديد .

هذه المعاني الدفينة التي يتحدث الجاحظ عنها هنا هو يقول لا مدخل لقراءتها في الشخص إلا إذا ذكرت يعني إما أن تكون قد نطقت أو كتبت وهذا معناه يعود الآن إلى التفرقة إلى نقل اللغة عن طريق القول ، عندما نتوجه إلى المكتوب و المنطوق هذا الكلام إذا كتب و نطق يمكن أن نستخرجه من خلال الدراسة و هذه المفاتيح كانت مفاتيح السيميائيين العرب في هذه الايام ، مقدمات السيميائيين أو مقدمات الذين يتحدثون عن أفكار و إشارات الوقوف ينطلقون من هذه النصوص عندما يقول الجاحظ

وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها و إخبارهم عنها و استعمالهم اياها و هذه الخصال التي تقربها..
كلمة السمة فيما بعد عندما دخلت في مصطلحات السيميائيات عادوا إلى هذه العبارات .

و على قدر وضوح الدلالة و صواب الإشارة و حسن الاختصار و دقة المدخل يكون إظهار
المعنى"تبدأ القراءة الحقيقة من هذا السطر بقوله "و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح و كانت
الإشارة أبين و أنور كان أنفع و أنجع .."قضية استصغار الدلالة المقصود بها هنا المعنى الظاهر و
ليس علم الدلالة بمفهوم الحديث ،علم الدلالة بمفهومه الحديث هو علم دراسة المعنى المرتبط بوحدة
المعنية في أحوالها من حيث السياق إما أن يكون اللفظ متعدد المعنى في المشترك اللفظي و التضاد أو
أن يتعلق بتصنيف هذه المفردات فننتقل الى المعجم .

هنا الكلمة لا تدل المدلول هذا "و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح .."يعني كلما كانت المعاني
ظاهرة و لذلك يقول الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه..

هنا الجاحظ يعطي تعريفات منها " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى... "هناك كلمتان
الكلمة الاولى فيها مهمة قضية الفهم في أبواب النقد الحديث عندما نقرأ القصائد نمر بمرحلتين
المرحلة الأولى مرحلة الفهم و المرحلة الثانية هي مرحلة التفسير،المرحلة الاولى هي التي نفهمها من
مدخل واحد هو مدخل النوع هو المكون لهذا النص ،ثم في لغة هذا النص هو بيانه و الدليل لما كنا
في المدارس كان ينزل تحته اكتب معاني المفردات فهذا مدخل للفهم و نأتي عند جزئية التفسير
بالنسبة للطالب يقول للطالب مالذي استفدته من هذا النص فالطالب يربط بين المعنى الموجود و حياته
،فيجد مدخلا لفهم هذا الكلام يفسر هذه الظاهرة في حياته أو منهجا أو حياة اجتماعية او جمالية او
نفسية .

لذلك يعلق الجاحظ على علم البيان أو على مفهومه بوصفه أداة إفهام للفهم تقف عند فهم النص ،درسنا
في النقد الحديث مدخلا في مفهومه و في محاولة فهم النصوص الأدبية و تفسيرها ففيها النقد
الاجتماعي و النفسي هذه كلها أبواب تفسير و ليست أبواب فهم ،الفهم يرتبط عند الأدوات اللغوية و
البلاغية في هذا النص ،و لذلك نتوقف عند الفهم و الإفهام بعد ذلك سيمتد الأمر مع المصطلحات
القديمة يقول:"فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى،فذلك هو البيان في ذلك الموضع "
البيان يتوقف معه مثل المعاني مثل علوم البلاغة اللغة و المعجم .

إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ "صاحب المقولة المشهورة المعاني ملقاة على الطريق و سوف
يفسر ذلك ،لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية ؛لأنها تعتمد على استقرار الشخص فاللفظ سهل إنما
المعنى مطروح للفهم .

"و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ..."

هنا أضاف لأول مرة كلمة "أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، ذكر كلمة التفسير هنا لأن الأشياء التي سيعرضها الآن فعلا تحتاج إلى شي من التأويل لأنها أحيانا لا ترتبط باللفظ فقط فحتاج هنا إلى جهد المتلقي في تفسير ما يسمعه أو ما يقرأه من اشارت او خط او عقد .

سنتحدث عن أهمية الكتاب من خلال هذه المقولات "العقل رائد الروح العفاف..." تأتي أهميتها في توثيق إلى ما يحتاج إليه الموثق و هذا نقرأه كثيرا في الكتب المحققة " ذكره فلان" ذكره هذا من باب تأكيد الرواية .

الاستشهاد هنا استشهاد في أقوال الفلاسفة أو الرواة هنا جامع علامة عليه هذه العلامات نجدها مدسوسة في الكتب المحققون يهتمون بها كثيرا .

هذه التي أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور و لم تتكلم هي لم تتكلم و العين كذلك الكلام مكتوب في وصف المشهد فقط و هذا البيت أم الباب .

هذه الإشارة تعد مدخلا أساسيا لهذا التواصل، يفهم منها ما يمكن أن يصل إليه المغزى، من وظائفها أن الإشارة التلخيص و أصبحت متطورة لما يسمى الأيقونة الموجودة على الهاتف أو الكمبيوتر.

الحرف إذا نطق أصبح صوتا و لذلك لا نقول ما صفة الحرف بل نقول صفة الصوت المسموع لحرف السين مثلا نقول مهموس .

"و الصوت هو آلة اللفظ..." في هذا النص لو كتب بالانجليزية لصنعوا علوما اسمها مثلا علم الجاحظية .